ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

العتبات التراثية في المنجز الروائي لواسيني الأعرج
قسوة الذاكرة وحفريات الذات

الاستاذ :صابر حرابي
المدرسة العليا للأساتذة – بوزريعة

" ثمة ضرورة لخلق أشكال فنية للرواية تستمد عناصرها من التراث "
جمال الغيطاني
" العتبة فضاء ومن لا ينتبه إلى طبيعتها ووظيفتها يخطئ أبواب النص"
سعيد يقطين

Resumé
Nous essayons dans cette approche traite l'un des concepts architecturaux qui dominent d'une facon remarquable sur le romancier accompli de wassiny laradj, et qui touche l'intertextualité patrimoiene au niveau des seuils. Notamment le titre, et pour simplifier cette relation interactive nécessair. Nous devions compter sur la théorie la transtextualéti, qui a été créé par Gerard Gennet. Comme nous, l'implorons le mécanisme interferer avec les propositions des récits – narratologie – modernistes don nous procédond à la procédure pour aboutir à ce qui est exposé. Donc abtenir les seuils d'installatios poétiques. Il a été montré que Waciny débute dans son traitement patrimoique avec la notion de dialogue dans des modèles fomels et narratifs, des visions, par le relachement de ces reférences, de l'ecriture qui dit l'identité et la mémoire ainsi affilié à la cohesion culturelle.

في البدء– مساءلات

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

ماذا يمثل التراث للروائي واسيني الأعرج؟ وكيف تتمثل الرواية الواسينية هذا المرجع؟

يبدو أن هذا التساؤل قد أصبح كلاسيكيا ومتداولا. غير أن المسألة ليست بهذا التسطيح، إذا ما عولجت من مواقع متعددة، تقرأ الفتوحات اللامتناهية للمحكي الروائي، وعلاقاته المتواشجة بلحمة النسيج النصي من جهة، وفي شبكة التبادل الانفتاحي التأويلي بين الخطاب والقارئ من جهة ثانية. وتصبح أكثر حراكا من حيث عمق التفاعل بين فجوات النص وآليات ترميم هذه البياضات.

وبالتالي يتجدد الأثر الأدبي بتجدد المنظورات النقدية وتباينها، والتي لها مسوغاتها ومقصديتها. وبتجدد الحياة كذلك، و تحولات السياق (الآخر، الواقع، التاريخ). وبهذا يخرج التساؤل – المقاربة نحو إعادة اكتشاف العلاقة الدينامية بين النص والمرجع/ المراجع. كما أن الوعي بهذه العلاقة لدى المبدع والقارئ يخصب الإنتاجية الأدبية والثقافية، إذ يدفع بالحفر في وظيفة الفن ومؤداه، ويعمق التجربة الإنسانية،ويعزز توهج المحكي الروائي(المصاحب للتحولات الاجتماعية والثقافية) كما يرى جولدمان1.

من هذا المنطلق يطرح المنجز الروائي لواسيني الأعرج – في حساسية كثيفة – ممارسة كتابية قوامها التجريب، من خلال مشروع يجدد الرواية الجزائرية وفق سحر المرجع وجمالياته. وبهذا تعيد هذه التجربة صياغة أسئلتها الجديدة، لفك هذه العلاقة وقراءتها بأدوات حداثية وما بعد حداثية، جاعلة من التنقيب في الذاكرة والانتكاسات الذاتية المتداخلة في شروخات السياق مادتها الأساسية. ويمكن القول إن واسيني الأعرج يتبصر التراث المحلي والعربي باقتراح مغاير في الترهين، ويوظف الموروث العالمي في استبصار خارجي يقدم إضاءات داخلية ترسخ دلالات التفاعل الناتجة عن مقولة التناص.

أي أن الرواية الواسينية تتحرك في أنساقها السردية المعمارية في ممكنات جوانية وبرانية، تضغط بكل حمولتها وثرائها في كتابة تحشد االتفاصيل والرؤى والتاريخ، لشحذ نسق شعري يتخلق بالذات والمعرفة. مما ينتج محكيا روائيا يتصل بالأنا انطلاقا، ويتوازى مع الآخر محاورة، أي يرى جوهر الوظيفة الروائية كوسيط

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

حضاري. ومادامت الرواية كما يراها منظرها الريادي باختين في إحدى التصورات(هي نظام من اللغات تضيء بعضها بعضا باستمرار وهي تتحاور) 2 وذلك لطبيعتها الحوارية La Dialogisme، فإنها لدى واسيني الأعرج نظام غير محدد ومدونة تسترفد الحقول الفنية والمعارف القولية، لتأسيس مقولات جمالية تتطرس بالتراث، وفق مبدأ العلاقة التحاورية، التي تتدرج أحيانا إلى المجادلة والمساءلة. من هنا تختلف تجربة واسيني الأعرج عن تجربة رواد الرواية الجزائرية – بن هدوقة والطاهر وطار – حيث يتبدى في هذه التجربة البعد السجالي الذي يريم على الرواية ولا يستكين إلى الاستلهام، بل تحركه قلق المنواليات الكتابية.

لذلك تمس الرواية الواسينية مستويات التشكيل والبنينة، متجاوزة الخطية نحو شكل مغاير للمعيار المكرس، وبهذا تطرح الرواية قضايا النص والمحكي والخطاب والميتارواية، بطروحات ترهن الموروث انتسابا واستردادا للتقاليد السردية، بتمثلها من جهة، والتأكيد على انسيابية المتخيل وممكناته من جهة ثانية، أي أن المشروع يتخلق في مدارات الوعي بالمرجع، والوعي بآليات الكتابة الروائية في آن. فالأول ضرورة الرواية الحداثية، من حيث أن كل نص أدبي لا يندرج في نسق ثقافي/ أدبي سبقه، هو نص شائه وفقير3. والثاني يمتص هذه المرجعيات ويرسي التجذر في المثاقفة المركبة، لقدرة الخطاب الروائي على الانصهار والاقتراض والصيرورة التي تنداح عنها صفتي التشعب والشمولية Totalité، وبهذا الطرح يساءل الروائي ذاته في مساءلة هويته/ مراجعه، مما يفعل ملكة السرد القائمة على التوازي والتجانس.

1_ بلاغة الموروث

ينهض مشروع الرواية الواسينية التي تستند إلى الاقتباسات المضيئة، على عدة إشكاليات لها صلة وثيقة بالسياق والشكلنة السردية والتجريب والحداثة، وترتكز أساسا على الفهم الحضاري لفعل الكتابة التي تتخذ من الذات مرجعا (ونقصد بالذات ما تقوله الأنا وتشكيلاتها التاريخية)4، في تأصيل الأصول– الزائغ عن النموذج الغيري – وهو جوهر الفعل الإبداعي. لذلك تتقصى الرواية الواسينية جماليات القص التراثي وأنماط حكيه، دون بلورت السرود النمطية كإطار ورؤى تحدد مخيال الرواية ومساراتها المعقدة. أي يستنطق الروائي نثار المحكيات التراثية

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

في أبعادها الشعرية ولا يركز اهتمامه على دلالاتها الفكرية، لأن الرؤية ثابتة ومتحولة، ولا وجود لحقائق مطلقة في الفن.

كما يحايث الروائي واسيني الأعرج الموروث العربي الإسلامي ثقافيا وأدبيا، وهو ما يتجلى في محاورته الموروث الصوفي في مسار الرؤية التراجيدية للوجود، مما يضاعف التأويل للحقائق الثابتة. حيث إن الرواية الواسينية في معاينتها لقضايا الوجود بتصوراتها الحداثية في سياقاتها، وبرؤيتها إلى العالم، تمسك على فائض المعنى بتعبير بول ريكور. لذلك تركز في تحاورها، على المعماريات الجمالية لأنساق القص التراثي. وبذلك يعيد الروائي طرح التساؤل التالي: (ما سر الوجود؟ وأين تكمن شعريته؟)5، كما يقول ميلان كونديرا. وواسيني الأعرج يتجانس مع المراجع التراثية في أقانيمها الشعرية، حيث يرسخ الحساسية الجمالية والوجودية للذات والثقافة.

بهذا المعنى، يمكن القول، إن التراث هو إحدى أهم التيمات للرواية الواسينية، إن لم يكن هاجسها الدائم، ومحك انتشائها المستديم، لذلك يردد الروائي (إن ألف ليلة وليلة هو أحد النصوص العائشة في كتاباتي) 6. والرواية الواسينية لا تستعير سبك الكتابة الإبداعية فحسب، بل تستضيء بالموروث الموسيقي والمعماري العربي الإسلامي والعالمي، مما يجعل الرواية خطابا بانوراميا يتميز بهيمنة تطريسية من جهة، ومن جهة أخرى تتأثث الرواية بحمولة فكرية جديدة، وهو ما يجذر تنوع التراسلات وتشجيرها.

أ_ غواية المرجع وممكنات السرد

كيف يسافر المحكي إلى نصوص ويستقدم أخرى دون أن يفقد فرادته؟ يجيب واسيني الأعرج على هذه التساؤلات، بكتابات تتغي إيقاعا روائيا يتخلق في مسار محدد، وإن بدت به تنويعات. إذ تتمظهر في تلمس سحر المرجع التراثي بكل زخمه المعرفي والفني، حيث تقدم الرواية فلسفة كتابية تتكئ على الروافد كخيار يؤثث معمارية المسرود من الناحية التقنية والجمالية والبنائية، أي يغدو التراث هدفا يفعل دينامية النص من حيث التطريس وهو ما يسمى بالمزج الروائي Contrépoint Romonseque7.حيث يسترشد النص بالحكاية والأسطورة وغيرها من المقابسات كمرجعيات، تسهم في التبئير على جماليات النص الروائي، أي تنزاح

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

الذات الفاعلة سرديا ورؤيويا إلى التأويل المفرط من حيث الاشتغال على قناتي الرواية والمرجع، وهو ما بحث فيه ميخائيل باختين في أعماله الريادية حول رابلي ودوستويفسكي.

وهو ما يحيل إلى التماهي الحواري الذي يفضي إلى انحلال الشكل الروائي، في جدلية الذات المبدعة والمرجع، مما يجعل الممارسات النصية توهج المرجع والمحكي في آن. لأن التحاور مع خطاب الهوية يؤكد الذات ولا يلغيها نحو الانصهار. فبقدر ما يترصع المحكي بقدر ما تتضح رؤية الذات، لذلك كان بارث يرى (أن المحكي ليس سوى تعبيرا عن أنا وأنا خارجه)8، أي الذات المبدعة التي توسع وظيفة السرد وتفتح ممكناته أكثر. بهذا الطرح يتضح أن التراث Patrimoineيحمل دلالة التوهج، وليس بعد القداسة والثبات،من حيث التحاور والامتداد، من الحاضر إلى الماضي، أي ضمن سيرورة الخطاب الروائي والنسق. أي يصبح (إستراتيجية تقوم بوصل القارئ بالمقرؤ، بغية إعادة ربط الذات القارئة بكل ما تحمله من نصوص تاريخية ومعرفية وحضارية بالمنهج المقرؤ من جديد)9. وبالتالي تغدو العلاقة بين الرواية العربية عامة والواسينية خاصة مع التراث أكثر من ضرورية.

حيث يمثل التراث الحقل الطبيعي لتكون الروائي العربي، إذا اعتبرنا أن التراث هو ما يمكن قراءته من مدونات العرب قبل الإسلام وبعده، وهذه المدونات هي ما يندرج في مكونات الثقافة والفكر والفن، مثل التصوف والفلسفة والمرويات والزخرفة والموسيقى. وتفعيل هذه المراجع يكون بتحويلها إلى ورش إبداعية، بحكم أن البعد الجمالي والدلالي في كل تراث هو أهم ما يميزه.وبهذه الرؤية يتحرك المتخيل السردي الواسيني، في استبصار تجليات التراث وتحولاته، وهي إستراتيجية قائمة على إدراك وغائية. وبالتالي تصبح الرواية (ثقافة بقدر ما هي ممارسة إبداعية) 10، وهو ما يجعلها في توالد وتخصيب، يحقق شعرية مناخها.

تأسيسا على هذا، يطرح المنجز الروائي الواسيني قضايا الذاكرة والذات والهوية والوجود، وفاعلية الفن في القبض على الأسئلة المستعصية، وتأويل ومحايثة السياق من خلال فعل التماس/ التناص مع الموروث. وهذا التجاور يفضي إلى البحث عن شعرية دائمة الألق، لا يمكن تمثلها في الوقت المعاصر إلا باستشفاف روحها

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

السردية، أي الحكايات العميقة التي خلت من هذا الإرث مجالا للامتداد والنبع. وتتمحور هذه الركائز أساسا في الاستضاءة بمنائر المعرفة والحرية والحب، كأقانيم تراثية قاعدية لأعمال واسيني الأعرج، إذ تنصهر الرواية الواسينية في هذه المدونات لتجذر كيانها من جهة، وتحرر الذات في القول الروائي من جهة ثانية. وتتمفصل هذه الرؤية في أنساق السرد الروائي من بناه التحتية والتشكيلية لتسيج النص في تشكيلاته البرانية، المؤسسة لمعمار ذا جمالية وخصوصية وفرادة.

غير أن ظاهرة الشكل الروائي هي الأكثر بروزا في تجلي الأقانيم الثلاثة – المعرفة والحب والحرية –كتيمات موصولة بين التغيرات والمحكي، إذ تذوب في شبقية السرد وتشعبه، ومسالكه الدلالية المتحولة. لذلك تتوهج على مستوى المخيال التطريسي أكثر، أي في العتبات والهيكلة، حيث يتمظهر هذا التناص كعلامات مؤشرة إلى تمرجع المحكي، من خلال فتوحات التأويل.

2_ عتبة منهجية:

- التيLa Tracendanceلا تضغط نظرية العلاقات عبر النصية، أو التعالي النصي أرسى قواعدها الناقد الفرنسي جيرار جينيت- على النص بكونها المعالجة الأمثل للكشف عن خباياه وأسراره التجاورية المتنوعة، أي توظيفها كآليات ميكانيكية صماء، بل نتوسلها كنظرية تتعامل مع منتوج فكري يخصب الخصوصية الثقافية للفن في إحالاته المختلفة. كما أنه لا يمكن الانغلاق على هذه النظرية ذات الحراك والتطور والشمول،بل نسترشد بالسرديات Narratologieالحداثية التي تسعى إلى تجاوز الشكلانية، نحو قضايا هندسة المعنى. كما أنها ترمم فجوات السرديات البنائية ونظرية العلاقات عبر النصية،من حيث الخروج من التجريد الفوضوي اللامنتهي للإحالات التناصية للنص أي الابتعاد عن السردية الواصفة، إلى التعمق في دوائر المحايثة النصية للرواية الحداثية، والتي ترى المعنى في الشكل وفي الدلالة معا11.

بهذا الطرح، نمطط نظرية التعالي النصي التي لاتمسك بجوهر الرؤية على مستوى التجلي السطحي المباشر، بل في جدلية التحاور/ التجاور والتشابك، حيث

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

تغدو هذه الثنائية بين النص والمرجع إحدى بؤر الرواية الأساسية، أي لا تخلي السردية مجردة، إذ إن شعرية الإيقاع الروائي في تعدد الأصوات والحفر في ذاكرة الذات المؤرقة، وتناغمها مع الشخوص والرؤى، يفضي إلى توليد شعرية ثانية، هي نظرية العلاقات عبر النصية وضمنها العتبات. وهو ما يحيل إلى التحشية النصية، التي لا تغدو مجانية ومجرد زخرف خال من الدلالة ومن البعد الوظيفي، بل تصبح مكونا جوهريا في مسار رؤى الرواية وبنائها الجمالي، أي تتماهى العتبات مع النسق العام للرواية.

وهذا ما يجعل المناصصة فضاء ممهدا وحاملا في آن، من كونها عتبة لولوج عوالم السرد، وخيارا جماليا لا ينفصل عن المحكي بالتسيج فحسب، بل بالإنسيابية والإحالة والتجاذب في تناسل القراءة والتأويل. حيث تتم قراءتها كإسقاطات إستبداليةProjectio Paradigmatique وتضمينية توسع دلالات التحاور، أي تتموقع كفضاء يجذر النص ويخلخل نمطيته في آن. أي أن العتبات التي تستند إلى التراث تتسم بالتعدد الصيغي للمعنى على مستوى الإنبناء والتشخيص، وتتمفصل كمستندات نصية تحيل إلى ازدواجية النص/ الرواية وخلاسيته، لأنه يظل دائما فعلا حرا. وهو ما يضفي على المحكي طابع الثنائيات، الحضور/ الغياب، الوجود/ العدم، الخير/ الشر، المرأة/ الرجل، الحرية/ القمع، هذه التي تتسرب من خلال التمظهر الترميزي للعتبات التي تشتغل كسرد مرآتي12، يكتنف نسيج النص، من حيث دلالاتها وجمالياته.وبالتالي ندرك سلفا أن العتبات توجه القارئ نحو مسار معين من جهة، وتخرج من الزخرفة الفنية الناشزة إلى المساس بجوهر القول الروائي، أي التخلق في النسق الثقافي والفكري الذي يحافظ على تأصيل الهوية ويديم أسئلتها من جهة ثانية.

من هذا المنطلق، تستند الرواية الواسينية إلى التطريس التراثي على مستوى العتبات كإرهاص للتجذر من ناحية، ولاستثمار آليات السرد المنوالي من ناحية ثانية، لتبرر امتداد النصوص وتداولها في شبكة من العلاقات الضرورية، وهو ما يوحي بالنسق الثقافي لنظرية العلاقات عبر النصية بما اشتملت عليه من أنماط أهمها: فضاءات العتبة والتناص والمتناص والتعالق النصي. ولأن الرواية الواسينية تكتب

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

نصها، ونصا موازيا تتمرجع معه، فهو ما يعزز رأي جيرار جينيت من حيث أن الإنسانية لا تكتب في النهاية سوى نص واحد، وهو ما يحيل كذلك إلى قضايا الكتابة وإعادة الكتابة، التي تكاد الرواية الواسينية تتفرد بها في خارطة الرواية الجزائرية. من هذا الطرح نخلص أن أعمال واسيني الأعرج ترهن الموروث تحاورا، وبطرائق تعبيرية حداثية ترقش المعمار وتشد بأقاصي المعنى، أي كتابة تشيد عمران النص وعمارته في آن.

3_ إستراتيجية تطريس العتبات التراثية:

ثمة ظاهرة ملفتة وشديدة البروز في أعمال واسيني الأعرج على مستوى المناص، تمس العناوين الرئيسية والداخلية والإهداء والتصدير ولوحة الغلاف... – منذ بواكير أعماله الروائية: نوار اللوز، مصرع أحلام مريم الوديعة، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف- رمل الماية، شرفات بحر الشمال، حارسة الظلال، حتى أعماله الأخيرة: سراب الشرق، كتاب الأمير، أنثى السراب، البيت الأندلسي، مملكة الفراشة...- وهي الإيغال في النمنمة الجمالية، مما يجعل الرواية تتشكل كفسيفساء نصية، تتوخى ملامسة الغواية والإشراق المتجلي للغة، الذي يروم تيمة التقاطع مع الجماليات التراثية.حتى وإن كان مسار الرواية ومخيالها يتلولب في الرؤية التراجيدية، وذلك على مستوى إحداثيات الواقع أو الوجود.

وهي ظاهرة تستند إلى خلفية تراثية، إذ يحاور المحكي وعي الكتابة التراثية، الرقش واللغة ومستوياتها ومدى نفاذها وتلويناتها على حسب السياقات، من حيث إدراك أهمية الحقول المعجمية كعلامات مؤشرة تكشف عن هوية النص الجمالي، في حين تنكشف في جذور اللغة وامتداداتها. وهي أولى تمظهرات التمرجع الذي يبغي التأصيل لا المحاكاة و التقليد، إذ لا يرصع الروائي فضاء المناصصة بالعناوين المصاغة بالحياكة الجمالية، إلا ليجذر الخلفية الجمالية/ الشعرية للكتابات التراثية المحبوكة بهذه السيمياء في أغلبها، مثل المدونات الصوفية والأندلسية. وبالتالي النأي عن النماذج الغيرية المحتكمة بتصورات تحف الكتابة، كما يبدو في بعض الأعمال الروائية العربية والجزائرية المنقادة إلى اتجاهات لها يقينياتها وأبعادها.

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

والروائي واسيني الأعرج يعي جيدا الاقتباسات المضيئة التي تسم فضاءات النص كغاية ورؤية، وهنا يتحاور مع مباحث الشعرية العربية، كتطريسات لها مناخ يسربل المحكي ويقوي صلة التمرجع. إن الروائي هكذا يدرك أهمية العلامة اللغوية كماأظهرها الفكر اللساني الحديث، لذا نلحظ تلك الأهمية التي يوليها للعتابات التي تخرج وفق هذا المنظور من العوالم الهامشية إلى صلب البؤرة والرؤية السردية، لذلك يبحث الروائي في جماليات العتبة من خلال البحث في حفريات اللغة ومجازاتها وحراكها، في إطار تقوية أصالة الإبداع. وهو ما يحدد هندسة المعنى من ناحية أخرى، بأدوات تشكيلية تغني التيمة التي تهيمن على الإيهاب الروائي. من هنا تصبح العتبة أكثر العلامات إحالة إلى المرجعيات التراثية للرواية الواسينية، إذ أنها – العتبة – أكثر البنى تحديدا للنص الأدبي والأكثر وسما له.

ومن أهم تمظهرات المناص،العنوان الذي هو(العنصر الموسوم سيميولوجيا للنص)13، من حيث التحديد البنيوي، أي أنه يؤدي وظيفة جمالية وإبلاغية وإفهامية وتعريفية للنص. ومن هذا الطرح، تبرز من جهة أخرى، أهمية نظريات القراءة والنص، ففي رؤيتها إلى العلاقة المتشابكة بين القارئ والنص، وكون الأخير لا يمكن استكناه طاقته الإستعارية إلا بتشغيل المدركات، نجد أن فضاءات المناص في الرواية الواسينية بطريقتها الترقيشية تمنح امتدادات شعرية متجلية على سطح البنية، غير أنها تحتاج إلى قارئ له القدرة على فك هذا المناص وربطه بالمنمنمات التراثية من جهة، وتماهيه وانحلاله في نسيج النص من جهة ثانية. لأن واسيني الأعرج يحور في العتبة التراثية ولا يضعها صماء كما هي في أصلها.

وضمن هذا الإنزياح تأتي ضرورة القارئ النموذجي الذي يفتح النص ولا يغلقه، ويرمم الفجوات، ويقرأ البياضات الموزعة على جسد المناص – من حيث الترصيع اللغوي تحديدا-حتى يتلمس الصياغة التي ابتغاها الناص/ النص وفق هذا التطعيم. لذلك يرى أمبرتو إيكو أن تعضد القراءة بالتأويل الإتساعي والتأويل المضاعف والمفرط أحيانا، يقول (يتحرك القارئ تأويليا، حيث يقوم بفك مغالق النص وغموضه من خلال ملئه لهاته الفراغات، من هنا يتبين أن النص يشكل إطارا

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

ومسرحا فسيحا للتفاعل القائم بين استراتيجيتين نصيتين: استراتيجية المؤلف وإستراتيجية القارئ)14.

والمناص هو نص، وجزء من العتبات التي تشكل فضاء الغلاف بما فيها لوحة الغلاف، والملاحق والذيول في الصفحة الأخيرة للغلاف، والعناوين والإستهلال ...وكلها نصوص موازية ومحيطة، تتخلق في فضاء الكتاب المتن والهامش، وتسهم بشكل كبير في صيرورته ورؤيته الدلالية والجمالية. وسنركز في هذه المقاربة على تمفصلات العناوين وتناصاتها التراثية.

أ_ العناوين – إشارات المتخيل:

لم يكن الدرس النقدي يولي اهتماما لفضاء الحواشي/ العتبات – كما هو معلوم – ولكن بعد المد التفكيكي وما بعد البنوي والسيميائيات السردية والشعريات المعاصرة بريادة جيرار جينيت، خرجت شعرية النص من المتن إلى الهامش، وكانت تستند في هذا التحول إلى خلفيات فكرية وسياقية. والروائي واسيني الأعرج - بحكم وظيفته كأستاذ جامعي – متابع للمنجزات التنظيرية في المشهد النقدي المعاصر، لذلك يعي جيدا أهمية العنونة Téteriolog في تشييد المعمار الروائي. وإذ نحاول رصد تمرجعات العناوين مع المدونةالتراثية، فإننا نمزج بين وظائف العنوان التي صنفها جيرار جينيت (الوظيفة الإيحائية والتعيينية والشارحة والواصفة)15، وبين مستوياته اللغوية والدلالية والشعرية، وهو ما يجعل العتبة تتسم بالتعددية الخطابية Pluridiscursivité ،التي تهيمن على الصياغةالروائية وأنساقها السردية.

في ستة أعمال روائية لواسيني الأعرج، يتمظهر بجلاء العنوان ذا التمرجع/ التناص التراثي، أولها روايته الريادية " نوار اللوز – تغريبة صالح بن عامر الزوفري " إذ ينفتح المحكي على مؤشرات مناصية بارزة ستؤطر دائما مسار الرواية الواسينية من جهة، وتشتغل في هذا النص كمستندات نصية لها مستويات وطبقات وتشعبات من جهة ثانية. حيث تتمفصل الإزدواجية العنوانية: عنوان رئيسي وعنوان فرعي، وتبرز رحابة الجملة: الطول في التركيب اللغوي، وكذا الإشتغال الكثيف على التلمسات الجمالية للغة والصورة. وهو ما يضفي إيحاء وترميزا عاليا، إذ أن هذه التلوينات تتمفصل كمحاور ثابتة في الرواية الواسينية، المتحاورة مع المرجع التراثي دائما.

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

غير أن الذات المبدعة وفتوحاتها التأويلية – قراءتها للكتابة، ستحور المناص بما يتماشى والإفضاء والتصدع والرؤية، أي أن الروائي يقدم (بنية روائية نموذجية تستدعي الزخرف التراثي وتصرفه وتظل مرجعا له) 16. وبالتالي ستنتقل هذه المكونات مثل الشخصية المرجعيةPersonnage Référentiel - بطابعها الثابت والجاهز على مستوى المعنى الذي أفرزه السياق/ الواقع – من النمطية إلى(الإشارية Embrageur)17، والتي يتدخل فيها القارئ ويوجه المرجعية إلى فضاء محدد. وهو ما نجده في مناص " نوار اللوز – تغريبة صالح بن عامر الزوفري " حيث يحيل مباشرة من خلال عنوانه الفرعي،إلى تناص المناص/ المحكي مع نص ينتمي إلى السرديات الشعبية هو " تغريبة بني هلال". هذا الكتاب الذي ينتمي إلى الثقافة التحتية - بما اشتملت عليه من مرويات وفولكلور وحكايات عجيبة وأساطير- سيتمفصل في صلب الرؤية السردية لرواية " نوار اللوز"، من مناصها إلى لحمة نصها. وكأن الروائي يكتب نصه الخلاسي المنفتح فوق النص التراثي، وهو ما يشير إليه في تصدير الرواية (...تنازلوا قليلا وأقرأوا سيرة بني هلال ستجدون ...) " الرواية ص 7 ".

وإن كان عنوان الرواية يشوبه التحوير والانزياح، غير أنه يحافظ على وظيفته التناصية والتأويلية، حيث يعمل كبؤرة/ أيقونة منفتحة على آفاق التجاذب الخارجي، تمرجع/ تناص الرواية مع المرجع، كما يسهم– داخليا- في إضاءة البنية السردية للرواية. ويمتح العنوان من المدونة الشعبية الواسعة على مستواه الرئيسي " نوار اللوز " حيث تحيل وحدة " نوار" إلى أزهار شجرة اللوز، وهي شجرة معروفة في القطر الجزائري. فضلا على الترميز الإستعاري للجملة في تركيبتها الكلية " نوار اللوز" والتي تحيل إلى الفتاة الفائقة الجمال. أما على مستواه الفرعي " تغريبة صالح بن عامر الزوفري" فإنه ينفتح ويتقاطع مع المسرودة الشعبية على مستوى الإيحاء التركيبي/ اللغوي والدلالي، حيث التغريبة والغربة والشتات والترحال هو مصير الهلاليين، وهو ما يتفق في الرواية من خلال شخصية " صالح" حيث الإغتراب في فرد يبحث عن ذاته، أي جماعة في المرجع/ السيرة، مقابل فرد في النص/ الرواية.

وبالتالي يتجذر العنوان في الرؤية التراجيدية لمضمون السيرة الهلالية من جهة، ويتناص معها في شكلنة السرد من حيث إسقاط وحدات أيقونية توهج عمارة

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

التشكيل من جهة ثانية. وهو ما يفتح الذات على فك الذاكرة التراثية، إذ تمنح امتدادات للسياق نفسه، أي كما عاش الهلاليون قديما، تعيش شخصية المحكي في هذا العصر. وهذه إحالة جلية إلى الوعي بحالة القمع الذي تتحسسه الذات في تجربتها، وتعيد صياغته بتلمسات سردية حداثية تقول المرجع والمحكي في آن. إنها (قسوة الذاكرة)18 كما كتب إدوارد سعيد، المنشقة على الأنا والآخر،على الواقع والسياق/ التاريخ، على لحظة الكتابة وإحالاتها اللامتناهية.

وفي تجربة أخرى، رواية " سيدة المقام – مرثيات اليوم الحزين" تتخلق العنونة على مستوى الرؤية نفسها التي ركبت في " نوار اللوز" من حيث الإزدواجية والطول والشعرية، يبين هذا، أن الروائي – كما تطرح إحدى التصورات – لا يكتب سوى نص واحد، وأن النصوص اللاحقة ليست سوى تنويعات على النص الأول. فالمراجع التي يمتح منها الروائي لا تتحدد في كتاب معين، بل يغرف واسيني الأعرج – كما يتجلى من مناص " سيدة المقام" - من المدونة الصوفية الثرية، ويتقاطع معها لتطريس العتبة، وهو ما يمنح للمحكي تيمة تراثية ترهف ذاكرة النص والمناص في آن. فوحدة " المقام" وهي إحدى الإشارات المعروفة في الكتابة الصوفية، من كونها رتبة يصل إليها العارف والمريد، حيث (الأحوال مواهب والمقاماتمكاسب)19 كما يقول أهل العرفان، والأولى تأتي من عين الوجود والثاني ببذل المجهود.

وبالتالي فهي بنية كتابية تتشرب من مناهل اللغة العذراء، أي الصياغة الصوفية برؤاها وتجلياتها، التي تحاول جاهدة القبض على الحقيقة الغائبة، التجريدية، بثمالة اللغة الحسية. وهي من السمات المهيمنة على الكتابة الصوفية الموغلة في الزخرفة، وتحسس منابت الصوت الروحي، حيث صفاء اللغة واقتصادها/ ضيقها، تساوقها نقاء الرؤية واتساعها. كما أن وحدة " سيدة " تحيل مباشرة إلى تجربة الأنثى الحاضرة دائما في الكتابة الصوفية ف (كل مكان لا يؤنث لا يعول عليه) 20 كما يقول إمام العارفين ابن عربي. وفي الرواية الواسينية كذلك تحضر المرأة بشكل لافت وكثيف/ شعري،إذ ذهبت – هذه الكتابة - نحو نمذجة وأسطرة المرأة، من خلال شخصية مريم. وعندما نركب المسند إليه: سيدة، إلى المسند: المقام كصفة للموصوف، ترف الإيحاءات إلى المعجم الصوفي.

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

كما أن العنوان الفرعي " مرثيات اليوم الحزين " يحيل إلى عنصر الرثاء في الشعرية العربية، كما يحيل إلى الرؤية التراجيدية المندسة في ثنايا المراجع الصوفية من جهة، والمتماهية في أنساق السرد الروائي من جهة ثانية، كتيمة محورية في الرواية خاصة وفي معظم أعمال واسيني الأعرج عامة. وكلها تطريسات تجعل فضاء المناص يكتنفه سمك دلالي وجمالي من خلال التبئير على جماليات/ مراجع ثابتة ومتحولة.

وفي رواية " فاجعة الليلة السابعة بعد الألف – رمل الماية " يواصل واسيني الأعرج التحاور/ التناص التراثي، حيث يتعالق هذا النص مع كتاب السرد الخالد " ألف ليلة وليلة " ويحاوره لا من موقع التاريخ، لكن من حيث استرداد التقاليد السردية الضائعة، ويحاوره على مستوى المعمار تفاعلا، وعلى مستوى المضمون تحويلا وتحريفا. أما على مستوى العتبة، فإن الرواية تتلبس بعنوان الكتاب التراثي، حيث يحور الروائي ويضيف ستة ليالي إلى الليالي، ويقلب - في لعبة سرد مرآتي تقوم على التناظر – العنوان في الرواية، حيث أن المرجع في طبعتهاالأصلية بولاق، يرشح بعنوانين : رئيسي " ألف ليلة وليلة " وفرعي " الحكايات العجيبة والغريبة...والطرب... والليالي الملاح " حيث نلحظ سمة الطرب والزهو ماثلة في عنوان المرجع، وتلك الرؤية الغائمة التي زينت الأدب والتاريخ العربي والإسلامي في إحدى أهم مراحله. بينما يعمد الروائي في تنميق العنوان الرئيسي ب " الفاجعة " وما ينسحب على هذه الوحدة من معان، وكأن الروائي يروي تاريخا آخر هو تاريخ الفواجع وتاريخ المسكوت عنه، أي عكس تاريخ الطرب في المرجع.

والروائي يستند إلى سحر الحكاية، ولكن لا يرتكن إليها في بناء عوالم النص المتشعبة والمتشظية، ويحارو الحكاية من حيث مبدأ الإستدارة الزمنية والتشجير – الدمى الروسية – حيث تبرز استدارة ووحدة الزمن. وكل كتابة دائرية هي استرجاعية بطريقة ما، أي تعتمد على الذاكرة وشجونها، لكن الروائي يخفف من حدة الرؤية التراجيدية للذات وللسياق/ التاريخ والواقع، بأن يضيف عنوانا موسيقيا تتأصل جذوره في التراث الأندلسي، إذ أن "رمل الماية" هي قطعة أو نوبة موسيقية تعمل على كسر المد الموسيقي الصاخب، وكأن الروائي يرى الحكاية وسمرها صخبا، وما دور الرواية سوى إعادة صياغة الحكاية التي تصبح جزءا من الكل الروائي وفق منظور

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

عكسي، إنها (النشيد الأندلسي المقموع)21 وبهذا يعمل المناص على التقاطع/ التحاور الجمالي والدلالي من خلال المناوأة والمعارضة التي تطال العنوان، الذي يؤدي وظيفته كنسق عاملي ونسق حكائي يشد النص بالداخل والخارج في آن، وهي دلائل تعمل بالموازة، أي التناظر في التشكيل والرؤية.

في تجربة رابعة، رواية " طوق الياسمين – رسالة في الصبابة والعشق المستحيل " يتعالق المحكي بشكل لافت على مستوى العنوان، مع كتاب تراثي شهير هو " طوق الحمامة – في الألفة والألاف رسالة في صفة الحب ..." لابن حزم الأندلسي. كما أن الرواية تتناص مع عديد المدونات التراثية أهمها: الأدبية والصوفية، مما يبين أن الناص شديد الارتباط بنسقه الثقافي والأدبي، أي بهويته. ويواصل الروائي ترقيش العنوان بالخصائص نفسها التي شكل بها عناوين الأعمال السابقة، حيث الإزدواجية على مستوى التفريع العنواني، وكذا طول الجملة ورحابتها، والشعرية الطافحة.

ومن خلال تلمس الوظيفة اللغوية الشارحة، نلحظ أن العنوان الفرعي في الرواية " رسالة في الصبابة والعشق المستحيل " يتواتر كجملة في شبقية السرد، وتحيل إلى الصياغة التراثية. إذ إن الجملة العربية التراثية– في أغلبها – طويلة ولولبية، وبعيدة عن المنطق العقلاني الذي تستميز به الجملة اللاتينية، يقول واسيني الأعرج (فالرواية الغربية تتميز بهيكلة عقلية.. أما إذا أخذنا ألف ليلة وليلة أو طوق الحمامة فإننا نلاحظ شيئا ملفتا للنظر من أسلوب السرد: فلا نجد الجملة الواحدة المتضمنة للمعنى الواحد كما لا نجد الفقرات والفصول....)22. كماوحدة " رسالة " تفتح المناص/ النص على التراث الأدبي العربي أدب الرسائل. و " الصبابة تحيل إلى الإرث الصوفي، مثل وحدة " المستحيل " التي تؤكد على الرؤية الصوفية المفتوحة، أي الخلاص والفناء في المطلق، وكلها وحدات تندرج ضمن فن السيرة الذاتية، بشكل معين، أي التقاطع مع التراث في احتواء للذات والمرجع،ومن هنا تتعزز فكرة الحفر في تجاعيد الذاكرة النصية والتراثية معا.

في تجربة " كتاب الأمير – مسالك أبواب الحديد " يتناص المناص/ النص مع الخطاب التاريخي- في كتابة لا تستند إلى الوثوقية التاريخية بل تقول الهامش الذي لم يقله التاريخ - وخطاب الإرث الأدبي للأمير عبد القادر، حيث يتحاور/ يتناص

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

العنوان الرئيسي للرواية مع كتاب الأمير الشهير " كتاب المواقف "، ويطرس العنوان الفرعي بالإهاب الصوفي، في وحدة " مسالك " وما تحيل إليه من التعالي والمراقي في جلوات اليقين، مثل وحدة " أبواب". والروائي لا يكتب تاريخا موثقا، بل يرصد ذاتا تتشابك في أسئلتها الوجودية مع أسئلة السياق (الواقع والتاريخ)حيث التماس والحوار الحضاري، أي أن القول الروائي لا ينحصر في التمرجع مع الخطاب التاريخي فحسب، بل يتحسس ألم الكتابة وإفضاءات الذات في لحظات التأزم، لذلك كان بارث يرى أن (الأنا حاضرة في الكتابة، حتى الأكثرها التصاقا بالتاريخ) 23. وبالتالي تتوهج القراءة التناصية لأنساق النص، بدءا من فتوحات المناص.

" تتقاطع العتبة مع الإرثين التاريخيMémoriumوفي رواية " البيت الأندلسي - والأدبي في تركيبة واحدة، من خلال دلالة الإسناد، من حيث الإشتغال على مخطوطة تراثية/ أدبية وتاريخية، وردت في شكل مذكرات، وهي ترجمة للكلمة اللاتينية التي وضعت كعنوان فرعي. غير أن الناص بدءا من العتبة، يستثمر خلاسية الرواية التاريخية الحداثية- التي غدت تسمى ما بعد الرواية التاريخي – التي لا تستند على الوثيقة، بل ثمة النثار التاريخي الذي يمزج السيرة بالمذكرات، سيرة الذات، وسيرة البيت الاندلسي، وسيرا لحيوات موازية...أي أن الرواية تقرأ كتابا مفتوحا، يستنطق التاريخ، ويستنطق نثاره في تسريد مضاد. هي ميزة الرواية ما بعد التاريخية، حيث تنتسج في المحكي الروائي أشكال ورموز وإشارات بنصوص وتقاليد نصية متنوعة، تمتح من الأدب والفن والتاريخ 24. وعندما نفكك شفرات العنوان بفرعيه، نستبصر أبعاد الزمان والمكان – حيث البيت = مكان، والأندلسي = زمان - المتداخلان في تمفصل مسار الرواية، وفي دينامية مخيالها. أي يؤثثان فضاء الذاكرة التي تستدعي أزمنة وأمكنة أخرى، إنها حفريات الذات في شروخات السياق/ الواقع والتاريخ.

نخلص مما سبق، أن الرواية الواسينية تأخذ بسمات التشكيل التراثي على مستوى تطريس العتبات، من خلال خصائص الإزدوجية، أي دائما ثمة عنوان رئيسي وعنوان فرعي، وكذا طول الجملة في التركيب الذي يأخذ تنميقا شعريا، وبالتالي تثوير المنواليات الحكائية/ السردية، من خلال تمثلات انزياحية مشفرة وفق جماليات

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

دائمة الحركة، أي أن كل رواية – على مستوى العنوان – تستند إلى مرجع/ كتاب أو مدونة أو خطاب تراثي.

عود على بدء

يطرح الروائي واسيني الأعرج التساؤل التالي (لماذا أهملت الرواية العربية الحديثة تقنيات السرد التراثي على مستوى العنونة وآليات الكتابة، حيث أن التراث يعمد إلى العنوان الزمني والممتد كما هو في كتب التاريخ للقلقشندي والمقريزي...)25. ويتساءل في سياق مماثل يعزز فكرة تجديد الكتابة والحداثة الروائية (ماذا لو أن النهضة العربية في بدايات القرن العشرين لم تمس السرد العربي؟ كنا قد وصلنا إلى الرواية من خلال الكتابات التراثية المتواترة، بطريقتها المفككة المتشظية، الحاملة لرؤية الإنسان العربي ومخياله، هل كانت النهضة نعمة على الكتابة العربية؟)26.

من خلال هذه المساءلات، يسعى الروائي إلى محاورة التراث الأدبي والثقافي والتاريخي – بحكم أن التاريخ جزء من التراث – ويرى في هذا التقاطع حداثة أصيلة تقول الهوية/ الذات، وتجمع شتات الذاكرة المتشظية. وكما لاحظنا من خلال العتبات، يأخذ التناص بعد الحوار تحويلا وتحريفا، من خلال التموجات الوظيفية التي تنقله من هيئة إلى هيئة، لكنه دائم الإحالة. وما التوازي والتناظر في العنونة المتفرعة إلا إيحاء إلى أن ثمة نص ومرجع. كما أن العتبة توحي بالوعي التشكيلي للرواية، حيث الشكل الشعري أهم ما يربط الرواية الواسينية بالموروث، ولا ترتكن العتبة إلى شكلنة الموروث، وإنما تتحرك في فضائها فقط، وتستلهم صداها الجمالي التطريسي.

إنها حرية الذات المبدعة القارئة للموروث الحر أيضا، وبالتالي تصبح الحرية تيمة أخرى ثابتة، تتواتر من المرجع نحو المحكي الروائي، يقول عبد الفتاح كيليطو (إننا بتهميشنا للشكل نغفل عن خاصية مهمة في ثقافتنا العربية الكلاسيكية، التي كان لها إحساس عميق ومرهف بالشكل وبأحكام الشكل)27. من هنا يتضح مدى وعي الرواية الواسينية– برؤيتها الحداثية التي تدغم رؤية الشكل في رؤية المعنى-بالوظيفة الشعرية للتشكيل التراثي، المتجلية أولا وأساسا في العتبات، التي لاتنحضر في البناء فحسب، بل تمتد لترسخ قول الذات الباحثة عن التموضع في النسق الثقافي/ الفكري، الذي يجذر هويتها ولا يبددها، بل تحاور منطلقة من الأنا نحو الآخر، في

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

كتابة تنفصل وتتصل في آن.الرواية بهذا الطرح، بدءا من العتبات، هي خطاب معرفي يحكي بجمال، يزداد ثراؤه بالتقاطع/ التحاور/ التناص.

هذا،وإن بدت المقاربة تنحو منحا جماليا مسهبا، فلأن طموح المنجز الروائي الواسيني يتوخى ذلك في حراك دائم، لا يتعلق الأمر إذن، بجرد شعرية العتبات، بل مساءلتها.

المصادر

واسيني الأعرج، نوار اللوز – تغريبة صالح بن عامر الزوفري، منشورات الفضاء الحر، الجزائر، ط 2، 2002.

// _ فاجعة الليلة السابعة بعد الألف – رمل الماية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 1، 1993.

// _ سيدة المقام – مرثيات اليوم الحزين، موفم للنشر، الجزائر، ط3، 1997.

// _ طوق الياسمين – رسالة في الصبابة والعشق المستحيل، ورد للطباعة والنشر، دمشق، ط 2، 2006.

// _ كتاب الأمير – مسالك أبواب الحديد، منشورات الفضاء الحر، ط1،الجزائر، 2004.

// _ البيت الأندلسي - Mémorium، الفضاء الحر، الجزائر، ط1، 2010.

الإحالات

1_ لوسيان جولدمان، التحولات الإجتماعية هي التي تفرض أشكالا روائية جديدة، ضمن مؤلف جماعي، الرواية والواقع، ت رشيد بن حدو، عيون المقالات، المغرب، ط1، 1988، ص 35.

2_ M, Bakhatine, Esthétique Et Théorie Du Romon, ed. De Gallimard,Paris, 1978, P115.

3_ فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت – المغرب، ط 1، 1999، ص 232.

4_ السعيد بوطاجين، الرواية غدا، ضمن كتاب الملتقى الرابع عبد الحميد بن هدوقة، وزارة الثقافة، 2001، ص 41.

5_ ميلان كونديرا، ضمن إمير مونتيجال، أدب أمريكا اللاتينية قضايا ومشكلات، ترجمة حسان عبد الواحد، عالم المعرفة، الكويت، ع 166/ 1987، ص 227.

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

6_ Waciny Laradj, les Blessures De Shéhérazade, LeverEsq, Magazine Littéraire, Alger, N = 08/2010, 06/2010. P 31.

7_ بيير زيما، النقد الإجتماعي – نحو علم اجتماع للنص الأدبي، ت عايدة لطفي، دار الفكر للدرسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 1991. ص 280.

8_ رولان بارث، التحليل النصي، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار التكوين، دمشق، ط1، 2009، ص 39.

9_ محمد عابد الجابري، نحن والتراث، المركزالثقافي العربي، المغرب – لبنان، ط 5، 1986، ص25.

10_ بنسالم حميش، حضور المشرق والمغرب في تجربتي الروائية، ضمن مؤلف جماعي، حوار المشارقة والمغاربة، كتاب العربي 12، الكويت، ع 65/ يوليو 2006، ص 230.

11_ سعيد بنكراد، السميائيات السردية – مدخل نظري، منشرات الزمن، الرباط، 2001، ص99.

12_ محمد برادة، الرواية العربية ورهان التجديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط 1، 2012، ص 149.

13_ صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، الكويت،ع 164/ أغسطس 1992، ص 218.

14_ أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية، ت أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، المغرب – لبنان، ط 1، 1998، ص 39.

15_G. Genette, Seuils, ed. De, seuil, paris, 1987, P 37 .

16_ فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربية، ص 241.

17_ Dictionnair De Linguistique, Larouse, Paris, 1973, P 111.

18_ إدوارد سعيد، قسوة الذاكرة- قراءة في أصداء السيرة الذاتية لنجيب محفوظ، مجلة الطريق، دار أنطوان ثابت، بيروت، ع 6/ 1995، ص 93.

19_ عبد الله حمادي، مساءلات في الفكر والأدب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص 219.

20_ ابن عربي، ضمن فاروق شوشة، أحلى عشرين قصيدة في الحب الإلهي، دار الشروق، مصر، ط 1، 1991، ص19.

21_ مشري بن خليفة، رمل الماية – النشيد الأندلسي المقموع، المسار المغربي، الجزائر، 24 / 06/ 1991، ص20.

22_ واسيني الأعرج، ضمن كمال الرياحي، هكذا تكلم واسيني الأعرج، الشركة التونسية للنشر والتوزيع، ط 1، 2009، ص 36.

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

23_ رولان بارث، التحليل النصي، ص 09.

24_ جراهم آلان، نظرية التناص، ترجمة باسل المسالمة، دار التكوين، دمشق، ط1، 2010، ص 257.

25_ واسيني الأعرج، ضمن كمال الرياحي، هكذا تكلم واسيني الأعرج، ص 99.

26_ المرجع نفسه، ص 99.

27_ عبد الفتاح كيليطو، قواعد اللعبة السردية، ضمن مؤلف جماعي، الرواية العربية واقع وآفاق، دار ابن رشد، بيروت، ط 1، 1981، ص 242 – 243.